التدوين في الاسلام

كتب سيدي عبد الحي الكتاني احد اعضاء مجمعنا في المغرب الأقصى مقالاً في موضوع التدوين والتصنيف في الاسلام نشره في (مجلة المغرب) فرأينا ان ننشر خلاصته في ما يلي :

ابتدأ التدوين في الاسلام بعد الهجرة فكان للنبي صلى الله عليه وسلم كتب في الصدقات والزكوات وكتابه الى أهل اليمن بانواع الفقه وكتبه الى الملوك وأمراء الأطراف وقد أمر صلى الله عليه وسلم أن يقيدوا له في ديوانٍ من أسلم قال وهو اصل الديوان العمري الذي صار في مابعد أقنوماً يرجع اليه في معرفة انساب القوم وسوابقهم في الاسلام .

وجمع ابو بكر وعمر وعثمان القرآن في مصحف . وجعل عمر تابوتاً لجمع صكوكه الرسمية ومعاهداته الأممية . وكتب ابن عباس الفتاوى التي كان يُسأل عنها . ودوّن ابن زيد في الفرائض والمناسك . وغير هؤلاء كثيرون من الصحابة والتابعين : منهم عبيد بن شرية الذي دون كتاب الأمثال وكتاب الملوك وأخبار الماضين بطلب من معاوية رضي الله عنه ودوّن (علامة بن كريم الكلابي) في عهد يزيد بن معاوية (كتاب الأمثال) في نحو خمسين ورقة . وكتاب مثله لصحار العبدي . ولأبي مخنف الأزدي من اصحاب علي رضي الله عنه كتبٌ : في (الردة) و (فتوح الشام) و (فتوح العراق) و (الجمل) و (صفين) و (النهروان) و (الخوارج) ومقتل علي ومقتل محمد بن ابي بكر ومقتل الأشتر ومقتل عثمان ومقتل الحسين و(الشورى) و(وفاة معاوية وولاية يزيد) و(وقعة الحرة) و(حصار ابن الزبير) و(المختار بن ابي عبيد) و(مرج راهط وبيعة مروان ومقتل الضحاك بن قيس) و(مصعب وولاية العراق) و(مقتل عبد الله بن الزبير) و(مقتل سعيد بن العاص) و(حديث حمراء)

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

و(مقتل ابن الاشعث) و(بلال الخارجي) و (حديث الأزارقة) وغير ذلك من حوادث ذلك العصر وقد سرد في الفهرست أسماء عدة كتب صنفها السلف في تفسير القرآن ونزوله وأحكامه . وقال ياقوت (كان خالد بن يزيد يقول كنت معتنياً بالكتب وما أنا من العلماء ولا من الجهال) ومن تصانيفه (السر البديع في الرمز المنيع) في الكيمياء و(كتاب الفردوس) وغيرها . ويظهر ان ابا بكر رضي الله عنه اول من بدأ في التدوين بدليل ما في كتاب (التعريف) لأبي عبد الله محمد بن عبد السلام بن اسحق الأموي في ترجمة ابي بكر قال (كان عمر قاضيه . وعثمان كاتبه . وسعد مولى مصاحفه) والمراد بالمصاحف عندهم الكتب فهذا يدل على أن ابا بكر كان لديه كتب كثيرة تحتاج الى قيم يلي أمرها لكثرتها . ثم مازالت تزداد الى زمن عمر الذي كان له صندوق اوقادوس يجمع فيه عهوده مع الأمم كما في خطط المقريزي (جزء ٢ ص ٧٤) . وامر الديوان الذي دونه عمر باسماء الناس ومراتبهم معروف . الى ان كان زمن عثمان فبالغ الناس في الوراقة وتجويد الكتابة والاعتناء بزخرفة الكتب . وفي كتاب (البيان والتحصيل) لابن رشد (قال ابن القاسم : وأخرج الينا مالك مصحفاً لجده فحدثنا انه كتب على عهد عثمان بن عفان فوجدنا حليته فضة وأغشيته من كسوة الكعبة) فدل ذلك على حالة الوراقة يومئذ وعلمهم بكيفية تحليل الفضة وتحلية الكتب بها وجعل الأغشية لها حتى من كسوة الكعبة . وفيه ايضاً (قال مالك كان قاضٍ في زمن عثمان رضي الله عنه (أو في زمن ابنه أبان[1]) رفعت اليه كتب تقادم أمرها والتبس الشأن فيها فأخذها (ذلك القاضي او أبان نفسه) وأحرقها بالنار . فقيل لمالك أفحسن ذلك ؟ قال نعم (إني لأراه حسناً) وكانت هذه الكتب في الخصومات التي تقادم عهدها حتى التبس امرها على الحكام وكان غرضه من إحراقها ان يستأنف اصحابها خصوماتهم فتسجل من دون ان يقع فيها التباس . فيستدل بهذا على ان الناس في ذلك العهد (عهد[2] أبان بن عثمان رضي الله عنه) بلغ بهم الأمر ان يضبطوا سجلات المرافعات

(١) [المجمع] ثم ذكر كاتب المقال حكاية يستدل منها ان (أبان بن عثمان) هذا ليس هو ابن عثمان بن عفان ثالث الخلفاء بل هو احد فقهاء الأندلس . فحرق سجلات المرافعات والحجج والخصومات كانت في عهد ذلك الفقيه الأندلسي لكنه على كل حال كان في عهد متقدم قبل الامام مالك رضي الله عنه .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

والخصومات والحجج امام المحاكم الشرعية·· وفي حسن المحاضرة ان المفضل بن فضالة اول قضاة مصر الذين طولوا كتابة الأحكام والمرافعات والوصايا والديون في السجلات وكانت قبله تكتب باختصار · اما اول من أمر بكتابة نسخة عن الكتاب قبل تبييضه فهو زياد ابن ابي سفيان فقد أملى على كاتبه كتاباً الى معاوية بخصوص عمران بن الفضل البرجمي فلما وصل الكتاب الى معاوية كتب الى زياد (كتبت في كتابك عمران بن الفضل) ولم تذكر له ما يتصل به (كأنه يعني قوله البرجمي) فسأل زياد كاتبه فقال انت أمليته فقال حديث نمس فلا تكتبوا كتاباً من بعد الآن الا جعلتم له نسخة فكان اول من وضع النسخ· وكانت لمعاوية مكتبة ولها خدمة وأعوان يتعاونون على احضارها له وقراءتها عليه يجلس لذلك في أوقات معينة لا يتخطاها وجاء بعده حفيده خالد فكبرت مكتبته بالكتب العربية والمعربة وجعله بعض الباحثين اول من جمعت له الكتب وجعلها في خزانة في الاسلام والحال ان الفضل في ذلك لأبي بكر ثم لعمر ثم لمعاوية قبل ان يكون لخالد · فمعاوية هو الذي بنى لحفيده خالد الأساس ونجر له هذا المقياس :

ولما ظفر طارق بن زياد في الاندلس بما ظفر به من الكتب القديمة التي تتضمن الطلسمات وعمل الصنعة (الكيميا) واصباغ اليواقيت ومنافع الاشجار والاحجار وغير ذلك من العلوم والصنائع والحكم ارسلها الى خليفة دمشق الوليد بن عبد الملك وذلك سنة ٩٢ للهجرة ولولا علمه بعناية الوليد بجمع الكتب ما وجهها اليه من المغرب الى المشرق · وفي آخر القرن الأول كان لعمر بن عبد العزيز خزانة كتب وقد عثر فيها على (كتاب ابن اعين) في الطب فأخرجه الى الناس ليستفيدوا · وكتب عمر الى سالم بن عبد الله بن عمر ان يرسل اليه رسائل عمر وسيرته وقضاياه وهذا يدل على ان عمر رضي الله عنه جمع رسائل وترك آثاراً مكتوبة مدونة · ولما راجع عمر بن عبد العزيز سليمان بن عبد الملك في مسألة إرثية قال سليمان ياغلام إذهب فأتني بسجل عبد الملك الذي كتب في ذلك (اي في مسألة الارث) · وكتب عمر بن العزيز رسالة في الرد على نفاة القدر وهي مقدار كراسة متوسطة · وقال معمر كنا نرى اننا قد اكثرنا عن الزهري (يعني في الأخذ عنه) حتى قتل الوليد بن يزيد فاذا الدفاتر قد حملت على الدواب من خزائنه ويقال انها من علم الزهري (اي من الروايات المأخوذة عنه) ·

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وكان ابن شهاب الزهري يجلس وكتبه حوله مشتغلاً بها حتى عن زوجته فغارت وقالت والله لهذه الكتب أشد عليّ من ثلاث ضرائر. وكان الزهري يقول: (إياك وغلول الكتب قيل له وما غلول الكتب) قال حبسها عن اصحابها اه. واصل معنى الغلول في اللغة السرقة من الغنائم قبل قسمتها بين الغانمين. ولما سعى الساعون بالزهري ضربوه بالسياط وعلقوا كتبه في عنقه.

وكُتُب عبد الحميد الكاتب التي كان ينشؤها مشهورة في جودتها وكبر حجمها حتى ان الكتاب الذي كتبه الى ابي مسلم الخراساني على لسان (مروان) كان يحمل على جمل من كبر حجمه فمهما كانت رقوقه غلاظاً فهو في حجم مجلد على الأقل.

وقولهم ان جمع الكتب في خزائن لم يعهد قبل الرشيد والمأمون — فيه نظر لما ذكرناه من الحوادث الثابتة. وقد نقل القاضي عياض عن مالك انه قال: (كانت عندي صناديق كتب لو بقيت لكانت أحب اليّ من اهلي ومالي) وروي انه قال: كتبت بيدي مئة الف حديث وقال بعض اصحابه دخلنا منزل مالك بعد دفنه فاذا فيه سبعة صناديق كتب من حديث ابن شهاب وصناديق أخرى من كتب اهل المدينة فجعل الناس يقرؤون ويدعون وعن امام الحرمين أن مالكاً أملى في مذهبه نحواً من مئة وخمسين مجلداً في الأحكام الشرعية وفي تنوير الأبصار للحصكفي ان محمد بن الحسن المتوفى سنة ١٨٩ هـ صنف في العلوم الشرعية ٩٩٩ كتاباً.

انتهى تلخيص مقال سيدي الكتاني وظاهر انه لم يرد من مقاله ان الأمة الاسلامية فاقت غيرها من الأمم في جمع خزائن الكتب لأن هذا أمر معروف وانما اراد أن يثبت ان عناية المسلمين بالكتابة والتدوين وجمع الكتب ابتدأ منذ عهد النبي صلى الله عليه وسلم خلافاً لمن قال انه ابتدأ في القرن الثاني للهجرة.

المغربي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net